إجتهاد فى تفسير (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

محمد سعد زغلول سالم

الأربعاء ٢١ يوليو ١٩٧١

يثير مضمون هذه الحقيقة الواردة فى الآية الكريمة (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) التى تشير إلى فصل السماوات عن الأرض بعدما كانتا موصولتين ببعضهما البعض الكثيرَ من الجدل بسبب ما يبدو من تعارضها الظاهرى مع مفهوم وإفتراضات نظرية الإنفجار الكبير التى وضعت نموذجاً فيزيائياً وفلكياً لكيفية بدء النظام الكونى فى التكوين. وقد درج المفسرون القدامى للقرآن الكريم على التفسير المباشر لجزئها الأول بأنها تعنى رفعَ السماء عن الأرض بعدما كانتا ملتصقتيْن وتميزهُما بعد ذلك إلى أرض وسماء ثم فسروا بقية الآية الكريمة بمعناها المباشر الذى يكشف عن خلق كل شيء حَيٍّ من الماء.

ويكشف التدبر فى الكلمات والمعانى الواردة فى هذه الآية الكريمة عن جوانب عديدة قد تفيد فى توضيح المقصود منها. فإستخدام كلمة (سماوات) وليس كلمة (سماء) التى وردت فى آياتٍ أخرى من القرآن الكريم يكشف عن حقيقة بعض الظواهر الفيزيائية التى تتعرض لها هذه الآية التى تختص بتفسير ما حدث بعد تكون الأرض حيث لم يكن لها فى تلك البداية المبكرة آنذاك غلاف جوى منفصل عن سطحها. ومع بدء إنطلاق غازات النيتروجين والأكسجين والهيدروجين وبخار الماء من باطن الأرض ومن سطحها ومع زيادة عزم الدوران المركزى لها الذى تسبب فى زيادة طاقة ما يعلوها من غازات منطلقة من باطنها بدأت تتكون طبقات متعددة (أو سماوات) من هذا الغلاف الجوى تم فتقهم أى فصلهم عن سطح الأرض لتكوين طبقات الغلاف الجوى المتمايزة حاليا والتى تشمل (٦) ست طبقات متعاقبة هى طبقات التروبوسفير والستراتوسفير والميزوسفيرر والثيرموسفير والأيونوسفير والإكسوسفير. وكان هذا الفتق أو الفصل أمراً ضرورياً ولازماً لبدء تكوين طبقات عليا أبرد من طبقات الغلاف المحيط مباشرة بسطح الأرض الساخن يتصاعد إليها بخار الماء من البحار والمحيطات ليتكثف ويتكون منه الماء ولذا جاء عقب ذكر هذا الفتق بقية الآية الكريمة (وجعلنا من الماء كل شيء حى) وهى العلاقة السببية التى لم يتعرض لها المفسرون فى ما مضى لعدم معرفة هذه الخطوات المتعاقبة التى بدأت بتكون الأرض ثم تكوين الغلاف الغازى الملاصق لها ثم فصل هذا الغلاف عنها ثم بدء هطول الأمطار والماء الذى جعل الله منه كل شيء حى. والله أعلم.

ولا يتعارض هذا التصور مع ما قد يتبادر إلى الذهن من تعارضه مع معنى الآية الكريمة (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) إذ أن الماء الذى خرج من الأرض مع بدايات تكوينها والذى كون البحار والمحيطات كان ماءاً مالحاً بسبب ذوبان أملاح القشرة الأرضية فيه كما أن الماء الذى جعل الله منه كل شيء حى هو الماء العذب الذى نتج عن تبخر هذه المياه المالحة بعد تكوينها وتكثفها فى طبقات الغلاف الجوى التى تم فصلها عن سطح الأرض ليمكن تكوين الأمطار والماء العذب اللازم للحياة.

وتكشف هذه الآية عن التعارض الواضح بين مفهومها وبين التصور الفلكى لنظرية الإنفجار الكبير التى لا يوجد أىُ دليل فلكى أو منطقى يؤيد أياً من إفتراضاتها العديدة وهى إفتراضات خيالية لم يثبت شيء منها حتى الآن. كما أن إفتراض أن المعنى المتضمن فى حقيقة أن (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) يشير إلى نظرية الإنفجار الكبير لا يتفق مع معانى الآية أو مع فرضيات نظرية الإنفجار الكبير ذاتها التى تقوم على منطق يشبه منطق الهندسة العكسية أى أنه مادام الكون يتوسع الآن وهو ما أشارت إليه قبل إكتشافه الآية الكريمة (والسماء بنيناها بأيْدٍ وإنا لموسعون) فلابد أنه كان منذ فترة زمنية كبيرة وفى بدايته الأولى مُرَّكزاً فى كتلةٍ متناهية فى الصِغَر ولامتناهية فى الكثافة حدث بها إنفجار لامتناهى فى قوته تناثرت وتباعدت فورَ حدوثه مكوناتها الجزئية التى إنتشرت فى هيئة غبار حار أخذ يفقد حرارته تدريجياً ويتكثف لتكوين المجرات والنجوم والكواكب على مدار بلايين أو ملايين السنين. وهذا الإفتراض الذى تقوم عليه ركائز نظرية الإنفجار الكبير أو الإنفجار العظيم لا يستقيم مع ما تشير إليه هذه الآية الكريمة حيث أنه حتى بإفتراض حدوثه لم يكن هناك ثمة أرض أو سماء موصولتين ليتم فتقهما مثلما يشير معنى الآية ولذا فإن الربط بين هذه النظرية وبين هذه الآية الكريمة أو محاولة تفسيرها بها ربط فى غير محله من أى وجه من الوجوه أشدُها وضوحاً أنه لم يكن ثمة أرض أو سماوات فى زمن حدوث هذا الإنفجار ليتسبب فى فتقهما كما تفيد الآية الكريمة. كما أن ذكر الماء بعد هذا الحدث مباشرةً لا يتفق مع أى إفتراضات منطقية تؤيدها أية شواهد أو ظواهر فلكية تتعلق به حيث تشير الإفتراضات المنطقية المعقولة فى علم الفلك إلى بدء تكوين الماء بعد ملايين أو بلايين السنين من حدوث هذا الإنفجار الكونى.

والواقع أنه بالرغم من إتفاق معظم (وليس كل) علماء الفلك والفيزياء على إفتراضات هذه النظرية فإن جميع الأدلة التى يستند إليها مؤيدو هذه النظرية هى أدلة نظرية مبنية على نماذج إحتمالات رياضية فقط وليس أكثر وكذلك على ظاهرة تمدد الكون التى ذكرت فى الآية الكريمة الواردة بشأنه فى القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ولكنها تفتقر إلى الأسانيد العلمية المتفق عليها فى مجال العلم الطبيعى. فلا يوجد فى المنهج العلمى مكان لكلمة (لا متناهى فى الصغر أو لا متناهى فى الكثافة) حيث أن القدرة على القياس والتحديد الكمى هى ضرورة منطقية لإثبات أو رفض أى إفتراضات نظرية يمكن ترجمتها إلى حقائق علمية فى ما بعدُ.

وتكمن المعضلة فى هذا الصدد فى المفهوم السائد بين العلماء الذى يستبعد معارف الدين تماماً من أية إفتراضات أو نظريات علمية. ويبدو الفارق شاسعاً فى هذا الشأن بين العالم المؤمن والعالم الملحد. فالأخير يهدر الوقت والجهد والمال فى ما لا طائل من ورائه ويصل فى النهاية إلى نظريات لا دليل مادى عليها مثل نظرية الإنفجار الكبير لتفسير نشأة الكون رغم عدم منطقيتها ونظرية التطور لتفسير كيفية النشوء والإرتقاء رغم سذاجة إفتراضاتها وهو ما يتسبب فى أن تظل آلاف البحوث النظرية والعملية التى

تستنزف المال والجهد والوقت جاريةً تبحث عن أدلة تساندها لن تعثر عليها مهما طال الزمان بها بسبب هذا المفهوم السائد. بينما لا يضيع العالم المؤمن الجهدَ والوقتَ والمال فى البحث غير المُجدى وبلا طائل فى التفكير فى إيجاد تبريرات أو تفسيرات أو فرضيات لفهم ما جعله الله بعضه أمراً غيبياً إختصه بعلمه وبعضه أمراً واضحاً بكلمة (كن) فيكون كل شيء بلا زمن وبلا سبب ومثلما يتضح من الآية الكريمة (والسماء بنيناها) أى خلقنا مكوناتها وركبناها ونظمنا أجزاءها .. الخ الخ الخ التى تكشف عن كيفية خلق الكون دونما حاجة إلى إفتراضات نظرية لا أساس لها من المنطق أو الواقع أو الأرصاد أو الحقائق.